

خواطر تربوية من القرآن الكريم

د. محمد بديع

دروس تربوية من آيات القرآن الكريم (1)

معجزة في آية:

قال تعالى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: 39)، في هذه الآية معجزة تربوية تلخص طريق تحقيق الرغبات التي تتمناها في دنياك، لقد طلب سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من ربه ولدًا يكون وارثًا للنبوة رغم علمه بشيخوخته، وعدم قدرة زوجته على الإنجاب، واعترافه بهذا، ولكن ما جعله يطمع فيما عند الله - وما ذلك على الله بعزيز - هو أنه رأى رزق الله لمرتب بعينه، بغير حساب وبلا أسباب، لكن الأعجب أنه - بعد أن سأل ربه وألح في الطلب - ذهب إلى المحراب ليصلي، فلم لم تنتظر الملائكة بالبشرى حتى يصلي لتخبره؟ إن الدرس في حالة صلاته أبلغ، والتربية هنا أوقع وأنفع لأمثالنا، فاشغل نفسك برضا ربك، وعبادة ربك يُعطك أفضل ما يعطي السائلين، كما ورد في الحديث القدسي (من شغله ذكرى عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) رواه البخاري في التاريخ، والبيهقي في المسند، وقال ابن حجر حديث حسن؛ لأنك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

أنت ونفسك وهواك:

إن سيطرتك على نفسك وشهواتها، وهواك ورغباتك، تجعل منك حكمًا رشيدًا على كل هؤلاء، كي تقودهم ولا يقودونك؛ لذلك انظر إلى قول الله عز وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: 7-9). إن الآيات توضح أن عجلة القيادة بيدك؛ لأن الجزء في النهاية سينال الجميع أنت ونفسك وروحك وبدنك، فلا تجعل لأي طرف تحت ولايتك أن يتسبب في عقابك، مثل طفلك الصغير الذي يريد أن يلهو بإشعال عود ثقاب، ويريد أن يوقد موقد الغاز، ويحاول عدة محاولات بإلحاح، وهو سعيد بتكرار التجربة، ومفتاح الغاز ينساب منه الخطر، فهل يعقل أن تشاركه هذا التهور؟ أو حتى تكنفي بموقف المتفرج وأنت تدرك أن الحريق في النهاية سيأتي على كل ما في البيت من أشخاص وممتلكات؟ فاشحن النفس بشحنات الخير والطاعة المتتالية لتزكيتها وتطهيرها، فتجني الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ (الشمس: من الآية 9)، ولا تدس فيها الخبث مرةً بعد مرة فتجني الحبيبة ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ (الشمس: 10)، وانه نفسك عن الهوى، واستحضر وقتك بين يدي الله، لتكون ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؛ ليتحقق لك وعد الله، فإن الجنة هي المأوى.

إن الله اشترى .. فهل تبيع؟:

عجيب أن تكون أنفسًا هو خالقها، وأموالاً هو رازقها وعلم منا بخلاً فاشترانا منا ووعدنا بها الجنة. إن الآية توصلك إلى نهاية القضية (بيع النفس والمال)، ولكن هذا ليس إلا من المؤمن، أي المصدق بوعد الله، وكل ما ستعرض له في هذه الدنيا، إنما هي أقساط البيع لأجزاء من النفس والمال، إلى أن يتم إتمام الصفقة، ويتم تسليم كل النفس وكل المال، لتعود الأمور إلى صاحب الأمر، وتصرخ من أعماق قلبك، ربح البيع ربح البيع.. وإياك أخي المؤمن أن تساوم في البيع، لتحاول الإبقاء على جزء من الصفقة، فإن الله عز وجل أغنى الشركاء عن الشرك، وإذا أردت أن يوفيك ربك ويجزل لك العطاء، فأوف بعهدك مع الله، فما لنا إن وفينا يا رسول الله؟ قال: (الجنة).

وكل مشاكلنا على الطريق، وانحرافاتنا عنه، ترجع إلى غياب هذه الحقيقة الناصعة، إن من باع نفسه وماله لله، سيتم إنفاذ البيع له في موعده المقرر، ومن يرفض البيع، سيؤخذ منه رغم أنه في نفس موعده المقرر، ولا حسنة له، بل عليه وزر نكث العهد، ويحضرني المثل العامي (إن صبرتم أجزتم وأمر الله نافذ، وإن ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ).

ألا تحبون أن يغفر الله لكم:

أخي المؤمن الموقن بأن ما عند الله أوثق مما في يديك، إن الله يخاطبك، بل يخاطبنا جميعاً في صورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: من الآية 22)، في موقف لا يتحملة إلا أولو العزم، أن تُتهم ابنته الشريفة العفيفة أم المؤمنين، من رجل هو من قرابته وينفق عليه، فلا أقل من أن يقطع عنه المال الذي كان يعطيه له، فهو لا يستحقه، لأنه يقول غير الحق، وناكر للجميل، فبُعِثَ ربه ويرغبه في الاستمرار في الإنفاق على مسطح المشارك في حديث الإفك، أما فعله فحسابه وعقابه شيء، وأجرك من الإنفاق عليه شيء آخر.

احرص على نيل الغفران من الله، احرص على طلب الجنة، ولو كان هذا على حساب من أساءوا إليك، فهم بإساءتهم مطيتك إلى الجنة.

وهو نفسه أبو بكر يسبه رجل في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم والرسول لا يتكلم، وأبو بكر لا يرد، فلما بدأ أبو بكر بالرد، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من المجلس، ولما سأله أبو بكر مستغرباً أنه لم يقم بينما الرجل يسب أبو بكر، بينما قام لما رد أبو بكر، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد أوكل ملكين من ملائكته يردان السباب عن أبي بكر، فلما تولى أبو بكر رد السباب حضر الشيطان وانصرف الملك، وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس في مجلس فيه شيطان. فاجعل أخي تعاملك مع الله مباشرةً والوسطاء يمتنعون، ألا تحب أن يغفر الله لك .. قل: بلى.

الوسطاء يمتنعون:

لو علمنا يا أخي أن التعامل المباشر مع الله عز وجل وعدم الانشغال بالأسباب عن المسبب، يجعلك تغترف الخير من منابع الخير، ولا يكون فيما تلقاه سوء أبداً، عش يا أخي في رحاب من بيده الخير، والدعاء المأثور علمك أن تقول: (الخير كله إليك، والشر ليس إليك)، رب الخير لا يأتي إلا بالخير؛ لذلك كانت المقابلة العجيبة في قول الله عز وجل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: 11).

أي أن كل ما يصيبنا مما نظن أنه شر نكرهه، ينقلب إلى خير لو تقبلناه من الله عز وجل، يتحول الصبر عليه إلى أجر جزيل، والرضا به إلى عطاء أجزل: (اعبد الله عز وجل على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير) ... (إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، فإن صبر اصطفاه، فإن رضي اجتباه).

درجات من القرب في مقابل درجات الحب، يأتي من المحبوب، لذلك كان الحديث النبوي الشريف واضحاً في أن هذا الأمر ليس لكل الناس، (... ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) رواه ابن حبان والسيوطي في الجامع الصغير ... تحولت الضراء إلى خير، طبعاً السراء له خير أيضاً، فهو رابح على طول الخط، أما غير المؤمن، فالسراء له تجعله يغفل عن شكر المنعم فتكون وبالاً عليه، والضراء تجعله يقنط فتكون وبالاً عليه، فكن عند ظن ربك بك، لأن ربك عند حسن ظنك به.

وفاء الأجر:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: 57).

حتام الآية يربي النفس المؤمنة على ألا تنتظر وفاء أجرها في الدنيا، بل تدم عمل الصالحات وهي واثقة في وعد الله، أن ما ينقص منها في الدنيا، ستوفاه في الآخرة، وما تعرض له في الدنيا، ليس هنا مجال القصاص، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل ﴿وَأَتِمَّا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: من الآية 185).

لكن الغريب واللافت للنظر أن هذا قرّن بأن الله لا يحب الظالمين، أليس في هذا طمأنة للنفس المؤمنة المبتلاة، بأن الظالمين سيكونون وراء كل انتقاصٍ من حقوقهم، وليس معنى أن يملك ربك أمرك لعدو الله وعدوك (... أم إلى عدو ملكته أمرى) أن الله لا يحبك ويحب الظالم الذي ملكه أمرك، لا بل هو استدراج للظالمين كي يقعوا فيما يوجب العقوبة المغلظة، (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) (رواه البخاري)، فالويل كل الويل لمن آذى مؤمناً وسلب حقوقه وظلمه، فيوم الحساب عسير، على الكافرين غير يسير.

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة:

هل تتصور يا أحي المسلم عندما تقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم والليلة أن في هاتين الكلمتين (الصلاة - الزكاة) علاجاً لكل ما تشكو منه من علل وأمراض وضنك وضيق وهم وغم؟ إنها الصلاة التي تحقق الراحة الكاملة وتقيم وتديم الصلة بالله عز وجل، وإثما الزكاة والصدقة التي تبث الإيمان، وتحقق اليقين، وتعمق الطهارة في النفس البشرية .. اللفظ لغة في الإقامة من مادته اللغوية، قام أقام يقيم قائم، فيها معنى البناء، فالصلاة يبنيتها فوق أركان، ويعلو بناؤها حتى يبلغ عنان السماء، بل قد تصبّح في حقيقتها كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم معراج المؤمن، تصعد به إلى حيث فرضت من أصلها في رحلة الإسراء والمعراج، عند سدرة المنتهى.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة وأهميتها، عندما قال صلى الله عليه وسلم: (... من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين)، فعدم إقامة الصلاة هدم لبناتها.

ومنها الإقامة فيها والسكن، وذلك بعد أن تبنيتها تسكن فيها وتسكن إليها، ومنها الإقامة والاعتدال وعدم العوج وعدم الخلل، ومنها الإقامة والمقيم والاستقامة، والمقيم هو المستمر الدائم، ففيها معنى الدوام، لذلك جاءت مرة ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: من الآية 23)، ومرة ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ (المعارج: من الآية 34)، والصلاة صلة، فالتدريب على شعيرة الصلاة تدريب على الصلة بالله، وعلى قدر حسن الصلاة يكون حسن الصلة.

أما الزكاة والصدقة، فليس المطلوب جمعها ودفعها للفقير، إنما المطلوب إيتاؤها، أي توصيلها على أحسن وجه، ففي حالة الأمانة قال الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: من الآية 58)، ولذا لم يقل هنا تؤدوا الزكاة، أما الزكاة ذاتها ففيها معنى الطهارة والتطهر والنمو والزيادة، لأنك تخرج من كل ما رزقك الله صوراً عديدة من الزكاة ﴿وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: من الآية 7)، ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: من الآية 254)، وورد في الأثر (زكاة العلم مدارسته)، وتتصدق من علمك على غير المتعلم، وتتصدق من خبرتك على الآخر الذي ليس له ما أنت فيه من خبرة، وتتصدق من صحتك على العاجز والضعيف، وتتصدق من حلمك على من يجهل عليك، وكل ذلك سماه الرسول صلى الله عليه وسلم صدقة .. أما الثمرة منها فهيha نطقها ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ (التوبة: من الآية 103)، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة: من الآية 265)، تطهير وتنمية وتثبيت هذه الثمار الطيبة التي تجنيها بعد إخراج الزكاة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... والصدقة برهان) رواه مسلم، أي دليل على صدق الإيمان واليقين، والثقة بما عند الله أوثق مما في يدك.

فهيha نصح صلاتنا لنقيمها، ونصل من خلالها برب العرش العظيم، وهيha نراجع زكاتنا فنزكيها ونزكي بها ترقية الله الكريم.

لا حول ولا قوة إلا بالله:

كلمة جامعة مانعة شافية بإذن الله، نكررها مرددين مع كل مؤذن في كل وقت صلاة أربع مرات، عندما ينادي حي على الصلاة حي على الفلاح، فما هو الحول وما هي القوة؟ يا من يشغلكم أمر التغيير والتحويل والتبديل من حالٍ إلى أفضل منه، اعلموا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، واعترفوا أننا لا نملك تحويلاً من حالٍ إلى حال، ولا نملك قوةً على ذلك إلا بالله، والحول هو القوة المعنوية الدافعة من العزم

والإصرار والرغبة والهمة والإرادة والقوة، هي الأداة المادية لتنفيذ هذه الرغبة المعنوية، وكل ذلك ليس إلا بالله ومن الله.. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 53)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: من الآية 11)، فبداية التغيير نفسك التي بين جنبيك إن استطعت تغييرها لتزداد قرباً من ربك، فأنت على غيرها أقدر بإذن الله، وأول خطوات ذلك، الخروج والبراءة من حولك وقوتك، إلى حول الله وقوته، وإن لم تقدر عليها فلن.

اليقين الأكيد أنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد:

عجيب أن يتكلم القرآن الكريم عن الغيب المستقبلي بصيغة الماضي، إنها طلاقة القدرة الربانية، يستوي تحت سلطتها الموجود والمفقود، يستوي الماضي، والحاضر، والمستقبل، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: من الآية 1)، ألم تسمع قول الله عز وجل عن أهل الجنة ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ (الأعراف: من الآية 44)، وعن أهل النار ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: من الآية 50)، وعن الشيطان ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (إبراهيم: من الآية 22)، وكلها أحداث في يوم القيامة ذكرت بالأفعال الماضية التي تؤكدتها قبل أن تحدث بسنوات وقرون عديدة.

عندما تسمع قول الله عز وجل دائماً في القرآن ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: 40)، ويزداد يقينك بأن الأمر على الله عز وجل هين، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لذا كانت كل المعجزات هي متغيرات لموجودات، إما أن يسلبها الله ما بها، ويزيدها فوق صفاتها .. أو ينقص من خصائصها.

تأمل العصا في يد سيدنا موسى أليست هي العصا التي أمره الله أن يلقيها فإذا هي حية تسعى .. هي التي أمره الله ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: من الآية 63)، أليست هي التي أمره الله أن ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا﴾ (البقرة: من الآية 60)، لو كانت كل معجزة بعصا لظننا أن هذه صفات في كل عصا على حدة، ولكنها واحدة أظهرت طلاقة القدرة الإلهية، وتضاءلت الأسباب، فكانت أضعف وأبسط الأسباب لتدل على المسبب سبحانه وتعالى، وتزداد معرفة بالقدرة الإلهية عندما تقرأ الأوامر تصدر إلى كل هذه الكائنات فتنفذ كلها فوراً ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي﴾ (هود: من الآية 44)، ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: 39)، تدخل بالأمر الإلهي المباشر إلى قلب امرأة فرعون، بل إلى قلب فرعون رغم أنه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: من الآية 24).

وفي خروج ماء زمزم العجيب، طعام وشراب وشفاء، بل والأمان عندما عسكر حولها الركبان، كل ذلك حماية لهاجر الضعيفة، والطفل لإسماعيل الأضعف، بعد أن نفذ الزوج أمر الله، وأطاعت الزوجة رها وزوجها، وفوضت أمرها لله (إذن لن يضيعنا)، وأخذت بالأسباب الممكنة، وهي السعي والهرولة ذهاباً وإياباً بين الصفا والمروة، وغاية أملها، أن تجد قافلة من بعيد تحمل غذاءً وماءً، فرأت الجائزة من ذي الجلال والإكرام، ماء لا يحتاج إلى رفع ولا حمل، بل نبع تحت القدمين الضعيفتين للطفل الصغير، ماء يزيد ولا ينقص، وسيبقى إلى يوم القيامة - بإذن الله - لا تعيش فيه ميكروبات ولا فيروسات ولا طفيليات ولا فطريات، حسب التجارب العملية التي أحرقت عليه في كلية علوم جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية، بل وأصبحت شعيرة لكل حاج معتمر أن يشرب من ماء زمزم، ليتذكر هذا الدرس، درس التوكل بعد الأخذ بالأسباب، درس تنفيذ أوامر الله وتكاليف الإسلام، والله يخلقك في أهلك ومالك وولدك بأفضل ما يخلف به عباده الصالحين.

آية في آية:

هل تتصورون أننا أحسن حالاً من كل الأمم السابقة التي رأت المعجزات الحسية والآيات الإلهية؟ إنهم إن كانوا قد رأوا آيةً فإن الله عز وجل قد أَرَانَا الآية في آية أخرى من آيات القرآن الكريم، فنحن قد رأيناها آيتين: آية معجزة حسية في آية معجزة قرآنية، لذلك سنشهد يوم القيامة مع الأنبياء والمرسلين على أقوامهم بأنهم قد بلغوا الرسالة، وذلك بما أبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل عن الأنبياء والمرسلين؛ لتكونوا شهداء على الناس، وإنه لشرف عظيم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: 44).

ذكر: أي رفعة وشأن مشرف، سنسأل عن هذا التكريم والتشريف.